
قصص من غزة
حياة ميتة
عاطف أبو سيف
سلسلة آفاق عربية
157
الهيئة العامة لقصور الثقافة

حيـــاة ميتـــة

قصص من زمن غزة

عاطف أبو سيف

وزارة الثقافة



سلسلة

آفاق عربية

تصدرها

الهيئة العامة لقصور الثقافة

• حياة ميتة

• عاطف أبو سيف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

القاهرة 2013م

13,5 × 19,5 سم

• تصميم الغلاف: أحمد اللباد

• المراجعة اللغوية: أشرف عبد الفتاح

• رقم الإيداع: ٨٦٩٦/ ٢٠١٢

• الترقيم الدولي: 978-977-718-328-1

• المراسلات:

باسم / مدير التحرير

على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني

القاهرة - رقم بريدي 11561

ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: 23904096



سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

حيـــاة ميتـــة

قصص من زمن غزة

مجموعة قصصية ظهر كثير منها باللغة الإنجليزية في موقعيّ "منظمة القلم الدولية" و"كلمات بلا حدود". ظهرت بأجزاء متفرقة في صحيفة "الأيام" الفلسطينية ومجلة "نزوى" العُمانية.

اكتشاف

اكتشف فجأة أن لغزة بحرًا، بحرًا كبيرًا، أزرق مثل لوحة غامقة الألوان، وأن الشمس تغيب فيه فى المساء وتصبح مثل برتقالة كبيرة تغطس فى لُجّةٍ كبيرة أيضًا.

كما اكتشف أن القليل من المراكب تقف فى قلب البحر على بُعد كيلومتراتٍ قليلة من الشاطئ، وأن لها أضواءً فى الليل، وتُصبح مثل مصابيح الطريق، مثل طريقٍ مجهولة فى البحر، لكنها طريق تعطيه الفرصة للنظر فى البعيد.

كما اكتشف أن أجرة التاكسى من بيته إلى البحر لا تزيد عن شاقل واحد، وأن المسافة لا تزيد عن خمس دقائق فى التاكسى وربع ساعة مشيًا على الأقدام، وأن الشاطئ بعيد عن نافذة مكتبه أمتارًا قليلة، وأنه لو وقف على النافذة لظن أن بإمكانه أن يلمس رغوة الموج بيده.

واكتشف أن بائع "البطاطس الحلوة" له حصان يسير فيه على الشاطئ وينادى على زبائن، منها من يستجيب ومنها من تلهيه الأحاديث والثرثرة. والفتيات اللاتى، لا بد لم يجتزن العشرين، يكتشفن

أنوثتهن وهن يقفن قبالة البحر، أياديهن تحاول القبض على النسيم مثل المستجيرات فى صلاة قديمة. والصبية يلهون رغم الظلام الذى بدأ يلف الرمال المبتلة من رشقات الأمواج، والخيام والمظلات المنتشرة على الشاطئ يلفها صمت الهاربين من ضوضاء المدينة، والمخيم.

ورأى كيف كان فى طفولته ينتظر نهاية الأسبوع لتذهب العائلة كلها إلى الشاطئ، وقد يستأجر والده "أفلوكة" يعبرون فيها فوق الموج، ثم سيشترى والده سمك "الدنيس" من الصيادين الجالسين على الرمل ينظفون شباكهم بعد ليلة الصيد طويلة، ويوقد هو النار قبل أن تبدأ رائحة "الدنيس" المشوى ترسل بالتحية لكل عابرى السبيل. فيما جدته بكرسيها الخشبى ذاته، تجلس قبالة الماء تنظر شمالاً حيث طفولتها فى مدينة أخرى (يافا)، وظلها يتمدد على الشاطئ مثل فكرة تسبح فى عقلها. ورأى كيف كان يرسم بالأزرق خطًا كبيرًا فى دفاتره المدرسية وباللون الأصفر ينثر الفراشات فوق لجة ماءٍ لا تتحرك.

ورأى أن قدميه لم تقده صدفة إلى حيث يتمدد البحر.

مبالاة

شرب القهوة على عجل. هناك ما يقترح أن فى الضجيج الوافد من خلف النافذة شيئًا يستحق الانتباه. كان الناس يلغطون بأحاديث كثيرة، بالكاد يسمع منها أول كلمة أو ربما كلمةً تائهة فى منتصف جملةٍ لم يفهمها. اقترب أكثر من النافذة. فنجان القهوة ما زال فى يده. الإغراء للخروج إلى الشارع لا يقاوم.

كان من السهل تخيل أن كل سكان المخيم قد خرجوا لأمرٍ جلل، لكن إغراء قهوة الصباح لا يقاوم أيضًا. قال إنه لا بد أن يشرب قهوته على عجلٍ ثم يخرج عما قليل إلى الشارع، على عجلٍ أيضًا.

لم يكد يُنهى الرشفة الأخيرة فى الفنجان حتى كانت الجلبة قد انتهت، وكان الهدوء يبسط ذراعيه فى النواحى خلف البيت. خرج على عجلٍ إلى الشارع الفارغ إلا من ظلال جدران البيوت المرتمية بين الأزقة.

الدكان

كانت دكانته الصغيرة آخر شيء بقى فى الشارع من زمن الطفولة. كلُّ شيءٍ تغير. البقالة ذات الرفوف الخشبية صارت سوبرماركتًا لا يخلو من أناقة وحداثة. الرجل، الذى يبيع السجائر فى صندوق من الكرتون، صار له كشكًا خشبيًا يتسع لعشرات الماركات العالمية. البيت المهجور، الذى كنا نلعب فيه، جاء أحد ورثته وبناه عمارة من طابقين. ورشة الحدادة أغلقت لأنها تزعج الناس، وقام مكانها محل للأثاث وآخر لألعاب الكمبيوتر. حتى الشاب، الذى ورث المقهى من والده، وضع فى أحد أركانه خمسة أجهزة كمبيوتر وصارت "كافيه نت"!

دكانته الصغيرة، حيث كان يجلس على عتبتها يصلح البوابير وأدوات المطبخ بصوت مطرقته الفولاذية مثل صدى يرجع بنا إلى زمن الطفولة. منذ ثلاثين عامًا، وحين قفزتُ من بين ذراعى أمى للمرة الأولى وصرت أخطو فى الطرقات، وأنا أراه يجلس هناك بشاربه، الذى كان يتغير لونه مع الزمن، بعض الشُحبار قد يُغطى شعره، يداه دائمًا

مشغولتان، وعيناه تردان تحية المارة فى الشارع، تختلف ابتسامتهما باختلاف درجة معرفته برامى التحية.

وكان يبتسم لى بعمقٍ ينمُّ عن محبة قادمة من زمن الطفولة.

الأشياء عادية جدًا

ثلاثة أطفال يلعبون فى الزقاق. المرأة تنشر الغسيل على الحبل الممتد بجوار جدار بيتها. صوت المذياع من النافذة المجاورة يحمل دقات الساعة إيذانًا بنشرة الأخبار. سيدة تخرج من البيت تحمل سلةً فارغة. ربما كانت فى طريقها إلى السوق. فى طرف الزقاق كهلان يجلسان على كرسيّين خشبيَّين صغيرين، وقطة تمر بهدوء ولكن بحذر، ملتصقة بالجدار. ثمة عصافير تشقشق فى عب شجرة الكينيا التى تطل من بيت هناك، وثمة ظل يأتى من طرف الزقاق ربما لسيدة (كما تقول استدارة النهد)، وصوت شاب يقرأ شيئًا بصوت جهورى يأتى من داخل أحد البيوت، كأنه يقرأ شيئًا له علاقة بالتاريخ القديم استعدادًا ربما للامتحانات الجامعية. القطة لما تزل تسير بجوار الجدار، والأطفال يقذفون بكرتهم أمام السيدة التى تنشر الغسيل فتبادلهم نظرات العتاب قبل أن يأخذ الكرة أحدهم ويعاودون لعبهم بهدوء. والشمس قد تجاوزت خد السماء الشرقى وذهبت خلف بعض البيوت. لم تعد العصافير تشقق ولم يعد صوت المذياع يفد بغير صوت

هدير المحرك القادم من فوق، من حيث كانت الشمس. وكانت كل الأعناق تشرأب إلى السماء حيث تحوم الطائرة مثل بعوضة مزعجة، وكانت كرة الفتية تطير أيضًا في الهواء.

توقف كل شيء حتى الكرة تسمرت في مكانها هناك، في الهواء.

أربعة

كنا خمسة!

لم يكن أولنا، ولم يكن آخرنا،

كما لم يكن منتصفنا،

فلم يكن أول حظ والدينا، فيكون بكرهما وصاحب الدلال الكبير،

كما لم يكن آخر أطفالهم، فيكون آخر العنقود والسكر المعقود،

ولم يكن شارة البشارة، حيث خير الأمور الوسط،

لم يكن ميلاده ليقترح أى شيء فى تاريخ العائلة.

هكذا رغم كل شيء، كان أكثرنا دلالاً، وكان أشدنا قربًا لقلب والدينا، وصاحب الحظوة الكبيرة، والمفازة الأثيرة. كان يوسف الذى نغار منه ونحسده على سعة القلوب التى تحيطه.

لم نرمه فى الجب ولم نغرد لرحيله المفاجئ. بكينا!

هكذا الآن علينا أن نعيش بلا غيرتنا، وأن نتخلى عن جزءٍ من طبيعتنا، وأن نتقبل أننا صرنا أربعة!

رحيل

كان مثل طيرٍ يطير

وإذا حط عليه الصمت يعرف متى يتكلم

وكانت لا تهزه ريح قبل أن تهب

تحمله الشمس الطالعة من ضلع الغيمة

كان بهيًا مثل وادى يسير بين الجبال

وكان حين يتدلل يعرف كم نحبه

يا ألله كم كان يعرف!

كان يحب الشمس

ويحب نهارات الجمعة

ويحب الظل يخطو على العتبات

يشبه شمعة ترقص مع الصوت

وزجاجًا يأتى بالشيء الذى لا يأتي

وينظر فى الأفق خلف خضرة الجبل لأن شيئًا يراوده عن حكايات زمان

ولم يكن يشتهى غدًا

ما أشبه ماضيه بالذى يحلم فيه!
وكان يرى شمسًا ترقص بين الغيوم
ويداه تخطان أفقًا على ورقةٍ بيضاء
يعرف المسافة بين الذى يرى والذى يتسع بين المحبرة والورقة
يا ألله كم كان يرى
(ثيراسيس)
ويروق له أن الدنيا تتسع لكل البشر
وأن الأشجار حين تقف على ضفة النهر لا تنازع الماء كينونته
كانت أمنا تغسل الهواء بأصابعها تنقيه كى لا تصيبنا جرثومة
وكانت تبكى لتتساقط حبات دمعها على رؤوسنا إذا بدا أن السماء
ستمطر كى لا يصيبنا ماء الآخرين
وأصابنا!

صباح مختلف

هذا الصباح مختلف!

لا طائرات فى السماء، حتى الشمس تأخرت فى الطلوع من مرقدها، أيضًا صوت الأعيرة النارية لم تعد تُسمع عند الأطراف. سيارات الإسعاف، التى لم تنم طوال الليل، ركنت إلى الراحة. حتى أن الشمس أفاقت متأخرة من مرقدها فى الشرق. كما أن الأطفال، على غير العادة، لم يملئوا الشارع بالضجيج وهم يلعبون، ولا صوت النسوة الحاملات السلال فى الطريق إلى السوق.

أيضًا، فى زقاقنا فى الحارة، هناك قبلة لن ترسمها شفتان صغيرتان على خد أُم تقف على الباب تشيع صاحب الشفتين الرقيقتين وهو فى طريقه إلى المدرسة.

لوحة قديمة

كانوا يحملونه ملفوفًا بالأبيض، وكانت الطريق الطويلة مكتظة بالألوف يهتفون مثل تلاميذ المدارس فى طابور الصباح. وكانوا يسيرون به فوق أكتافهم بكبرياء. وكان قرص الشمس شديد الوهج، والنسوة خلف الرجال يسرن بجلالٍ ولكن بغصة، يلتفون حول امرأة (ربما كانت أمه) لم تفق من صدمة الفقد بعد. التلاميذ لا بدّ أنهم تركوا مقاعدهم الدراسية. سيارة الشرطة تحيط بالرجل السمين وهو يتقدم الجمع. بضع فتية يلفون الكوفية حول أعناقهم، وآخرون يرفعون الرايات المزركشة.

مُكبرات الصوت تصدح بالأغانى، وصوت رجل يدعو إلى الغضب، والناس تركض من بيوتها لتلتحق بالركب المهيب. صحفى أجنبى يقف مع شاب يرفع أربع رايات، أطول منه، كأنه يسأله عن مشاعره. الشاب يترك الصحفى دون أن يجيب على السؤال. وجه الصحفى بدا مرتبكًا. مصورو وكالات الأنباء يتنقلون بكاميراتهم بين الجسد المسجى على الأكتاف وبين النسوة النائحات والفتية الغاضبين

والرجال الذين يتعالون على الألم والحزن، ينقلون الصورة بسخاء.

لا أحد انتبه إلى تلك الفتاة التى تطل من نافذة بيتها على طرف الشارع وتبكى وهى تقبل صورةً صغيرة، ربما كان أعطاها إياها قبل أيام من رحليه، من يعرف.

مضت المسيرة الطويلة، وأتمت الطريق الطويل، وبدا المكان فارغًا إلا من شابة تطل من نافذة صغيرة، والدمع يتساقط من عينيها على الصورة الصغيرة مثل حبات الثلج، كأنها لوحة قديمة تركها الجميع.

بوستر غير مرغوب فيه

غزة جدار إعلانات كبير. المدينة كلها دعاية انتخابية. صندوق ضخم لدعايات مرشحى الرئاسة. الصور الكبيرة والشعارات المعلقة فى أفق الشوارع، نشرات الأخبار وبرامج التلفاز، أحاديث المقاهى واختلاف الآراء. والبيانات والمناشير، التى تعد الناس بالشمس وبالعسل، ترتمى فى كل زقاق.

إذًا ماذا يمكن أن يكون أكثر إثارة فى كل هذه الزحمة من شاب يمسك صورة أمه التى ماتت قبل عشر سنوات (الذكرى العاشرة) ويعلقها بين أكوام صور وبوسترات المرشحين. وماذا يمكن أن يكون أكثر إثارة من أن تكون الوحيد الذى رأى صورة هذه الأم حين تكون تمر صدفة من الشارع؛ حيث وما أن يدير ظهره، حتى يكون أحدهم قد ألصق صورة مشرحه أو من يعمل لصالحه، لتغطى كل شيء حتى صورة أم شاب حزين على فراقها فى ذكراها العاشرة!

حكمة غير مرغوبة

كانت ترتشف الماء من الكأس الزجاجي الشفاف، تبحلق في جوف الزجاج، قد ترى وجهه مثل شمس تقفز بين الغيمات، وتضحك وهي تزيل عن شفتيها القشب وتقول "لو أن الزمن يعود ! أو، لو أن الزمن يمر ! "

كانت تريد اللحظة التي تعانقه فيها سواء رجع الزمن للوراء أو مرت السنوات العشرين المتبقية له من محكوميته في السجن. لكن حكمة الزمن (أحدهم لا بد أن يقول للأسف) انه لا يعود وأنه لا يمر كما أنه لا يموت.

ظل الفراشة

كان يسير فى الطريق الترابى يحمل حقيبته على كتفيه. الحقيبة مثل فراشة حطت لتوها على غصن. كان لا ينسى أن يبتسم أبدًا. وكان ظله يسير على الجدار عن يمينه، حيث تكون الشمس تذهب فى جوف البحر، الذى لا يبعد إلا أمتارًا قليلة.

اليوم لن يسير فى الطريق الترابى، ولن تحط الفراشة (أقصد الحقيبة) على الغصن (أقصد كتفيه) رغم أن الشمس مازلت تذهب مثل كل يوم فى جوف البحر.

فقط ظله سيظل على الجدار متسمرًا مثل بورتريه قديم لا يتحرك.

لعبة حظ

لا يمكن لعبارة أن تصف حياته أكثر من الحظ.

حين استدان من إخوته ليفتح محل البوظة والمرطبات استهجن الجميع كيف يغامر بفتح محل فى ضاحية نائية على أطراف المخيم بالكاد يصلها الناس. بدا الأمر مغامرة قصيرة الأجل، إذ أن الجيش حين داهم المخيم من أطرافه ليحكم السيطرة عليه قام بتجريف كل البيارات والكروم التى تقف فاصلاً بينه وبين الطريق السريع.

وبضربة حظ أيضًا وقفت شفرات البلدوزرات هذه المرة عند البيوت القليلة التى يقع فى إحداها محل البوظة والمرطبات الذى لم يكن له أسابيع قد افتتحه.

وخرج الجيش من المخيم وعاد إلى ثكناته على الحواف البعيدة وصارت المساحة الشاسعة التى خلفتها البلدوزارات ميدانًا رحبًا للاحتفالات العامة، وصارت الناس تفد بالمئات وبالآلاف لحضور هذه الاحتفالات، وصار الشارع الضيق الذى يقود إلى هذه الساحة

يعج بالمسيرات الغفيرة برايات التنظيمات والفصائل المختلفة وبالصبية الراكضين خلف الأعلام.

حين تُنظم "فتح" احتفالاً يكون جهاز التسجيل داخل المحل يصدح بأغنية لفتح "يا أم الجماهير يا فتح" وحين يكون احتفال لحماس يخرج الصوت من داخل المحل بأغنية إسلامية وإذا كان الاحتفال للجهاد الإسلامي أو الجبهة الشعبية كان الأمر كذلك.

وصار المحل مزار الناس الوحيد لشراء ما يخفف عنهم بعد ساعات يقضونها في الهتاف أو الاستماع للخطب والشعارات.

وصار جزءًا من الاحتفال.

شعارات

الشاب الذى وقف ذات نهار وكتب على الجدار عبارة صغيرة يقول فيها لفتاة تبادله الحب إنه يحبها.

من يرى؟

حدقوا جيدًا؟

من بين كل هذه الشعارات الكبيرة ذات الألوان الزاهية والخطوط اللامعة، هناك عبارة خارجة عن السرب، تغرد فى مكان آخر، تقول كلامًا مختلفًا.

بالطبع لا أحد يرى أكثر من هذه الشعارات، لا أحد يكلف نفسه عناء التأمل ولو قليلاً.

ربما وحدها كانت تبحث بين هذه الشعارات والألوان والرسومات الزاهية عن عبارة صغيرة كتبت بدهان باهت لكنها تلمع فى قلبها. حينها باغتها أحدهم ليسأل إذا ما كانت ترغب فى اللحاق بـ"التنظيم" الذى تملأ شعاراته الجدار الذى تبحلق به.

ساعى البريد

يمر كل صباح بعد أن تشرق الشمس، بالكاد تكون الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف، يمر بدراجته الهوائية ذات المقود الصدئ رغم اللون الأزرق اللامع على حواف العجلات. دائمًا يرتدى معطفه الأسود حتى فى الصيف، كأنه يتمسك بصورته عن نفسه. من عنقه تتدلى حقيبته السوداء أيضًا حيث تطل منها الرسائل مثل عصافير تنتظر الخروج من القفص. عند أول الشارع سيركن دراجته جانبًا ليبدأ بتوزيع الرسائل على البيوت.

كانت، ومنذ ستة أشهر، تركض عند الباب حين ترى دراجته ذات المقود الصدئ، رغم اللون الأزرق اللامع على أطراف العجلات، تلتوى عند طرف الشارع. تركض عند الباب، الذى لم يتوقف عنده يومًا ساعى البريد ليحمل الرسالة القادمة من ذلك الذى يقبع خلف الأسوار منذ أربع سنين، وعدها بأن يرسل لها رسالة حالما يسمحون له بذلك كما أخبرتها أمه عند زيارته.

لا تفيد ابتسامات الأم المبطنة وغمزات عينها والسلامات التى تنقلها

لها، تريد ان ترى خط يده المرتجف ينقل لها توتر قلبه وهو يتذكرها.

من يتوسل إلى ساعي البريد، هذا، أن يقف، ولو مازحًا، لعله يُدخل السعادة على قلبها.

الطريق

ثمة شيء في الطريق!!

قلت له "هل أنت متأكد بأنه يقود للبحر"؟

قال "متأكد فقط !!! أنا أعرفه كما أعرف كف يدى، وأحفظه كما أحفظ اسم والدى."

هز رأسه وسار، فسرت خلفه. لكن ثمة شيء في الطريق!

ثمة غابة على الأطراف قلبها معتم،

ثمة غيمة في السماء فوق رؤوسنا وجهها مكفهر،

ثمة نسوة يتشحن بالسواد يعبرن بين الفينة والأخرى،

ثمة أعشاب مدمرة رغم بشاشة الربيع،

ثمة طفل دامى القدمين يقف مثل قطعة رخام تائهة،

وثمة قلق ينمو، مثل طحالب البحر، في صخرة قلبى،

وثمة شيء يقسم لى بأنه لا يعرف الطريق،

وبأننا تائهون.

وحيدة

تحب الوحدة (كما تزعم)، وتحب أن تنأى بنفسها عن العالم لأنه مليء بالشرور (تهرب ليس إلا)، وتحب أن تلعب دور العاشقة التى لا تقوى على موج الحب (وفى هذا الكثير منها). قالت له إن غزة تحب الفضائح، وألسنة الناس تنقل القصص مثل سيل المطر فى شارع منحدر.

حين خرجا من البيت للمرة الأخيرة، وقد اتفقا على الفراق النهائى، تظاهرت بالكبرياء واللامبالاة. "هذا أفضل من ثرثرة الناس".

أغلق الباب ساحبًا ظله من بين ضلفتيه، جارًا إياه على وجه الطريق.

يومها بكت مثل غيمة. تساقط الماء من شفتيها. ارتمت على الأرض. استدارت فى العتمة. كانت الشمس قد ذهبت، وكان هو قد ذهب أيضًا، وظلت الوحدة أنيستها الباقية أبدًا.

من يستطيع أن يمتدح هذا الألم!

حتى غزة لا تقدر على ذلك.

قسوة

قاسٍ جدًا هذا الصباح !

نشرة أخبار الجزيرة على الريق تحمل صور القتلى والجنازات الليلية والموت المفاجئ.

صوت الـ"105FM" يأتى بأغانيه القاسية، أيضًا، عن الأم التى تودع طفلها وتبكى، ثم يأتى صوت المذيع الجهورى يقول: إن للموت طعمًا عظيمًا (مش مهم ماذا يقصد).

سيارة الشرطة تملأ الدنيا زعيقًا بين الفينة والأخرى، كذلك صوت الشاحنات والعربات الضخمة تعبر الشوارع الضيقة. همس الجارة والجار الشابين (يتجادلان) سرعان ما يتحول إلى صراخٍ وزعيق، يلم عليهما كل سكان الحارة (يقولون إن الأمر على غير المتوقع لم يفِد للطلاق)!

صوت المرأة العجوز وهى تدندن بأغانيها عن الزمن "اللى كان" ذهب فى الزحمة.

أيضًا كان اليوم مرهقًا فيما الشمس تبدو مثل كرة لهب بالكاد تقوى على الاشتعال !

زيارة الخميس

يذهب للمقبرة كل خميس، مثل عادة الناس فى المخيم لزيارة أمه وأخيه وصديقيه وعمته وجدته وجاره والطفل، الذى كان يلهو خلف نافذته كل صباح.

مضى الزمن الجميل الذى كان يرى فيه كل من يحب. ذهب الذين يحبهم وصاروا صناديق من رخام مزينة بكلمات جميلة عن البطولة أو عن اليوم الآخر، أو عن الوطن والتضحية، ولا شيء عن حزنه.

حين يعود للبيت تكون طفلته تلعب على باب البيت، ما أن تراه حتى تقفز مثل فراشة بين يديه. يضحك ويخبئ بين عينيه دمعة تكاد تفضحه.

بورتريه

كان رقيقًا مثل نسمة، وطريًا مثل غصنٍ بكرٍ لم تحط عليه العصافير بعد.

وكان وجهه مثل شمسٍ فى مطلع مشرقها، وقامته ممتدة فى الفراغ حوله مثل كتلة.

وكان يمشى الهوينى وينظر إلى الطريق دون أن يتعثر.

وكان يحب أن يبتسم للناس فى الطريق، يوزع حركة يده بالتحية.

وكان كلما عاد إلى البيت التم حوله أطفاله مثل فراشات صغيرة حول اللمبة، وكان دافئًا.

وكان رجلاً طيبًا ! !

ومات !

يا الله ! كيف يذهب الموت بهذا الجمال ! !

رئيس البلدية

منذ أن أصبح رئيسًا للبلدية لم تنقطع عن بيته الكهرباء، وكانت الضواحى كلها تغطس طوال الصيف فى عتمة داكنة. كما كانت البيوت القليلة المحيطة بالبيت وحدها لا تجف المياه من خزاناتها. كما أن الشارع الترابى المهمل لعقود صار إسفلتًا تزين رصيفه الحجرى أشجار الظل والسرو والإنارة الليلية.

وأيضًا منذ ذلك الوقت، أى حين صار رئيسًا للبلدية، لم تعد مياه الأمطار تتجمع فى برك، يصير على الصبية القفز عنها للوصول إلى المدرسة، كما صارت السيارات الفارهة تعبر الحى بانتظام، ورجال الشرطة يتدخلون فى كل من يمر فى الطريق، واعتدنا على ذلك.

كما أننا صرنا لا نراه إلا فى نشرات الأخبار وهو يقص شريطًا أو يدلى بتصريح.

انقطاع

. لم يشاهد التلفاز منذ أسبوعين. ولم يقرأ الصحف منذ أكثر من ذلك. ولم يفتح بريده الإلكترونى منذ أسبوعين أيضًا، ولم يستمع لنشرات الأخبار فى الراديو منذ عشرة أيام. كما لم يخرج من البيت منذ أسبوع. كانت الكهرباء زائر غريب لم يفد لناحيتهم منذ أكثر من أربعة عشر يومًا. كانت المدينة ملفوفة بالظلام وكان الدمار يزحف إليها من الأطراف ببطء ولكن بثبات. وكان يرى الطائرات وهى تغير فى النواحى فلا يملك إلا أن يجيب طفله بأن بيتهم بعيد "كثيييييير" عن مكان القصف. وكان يكذب ويقول لطفله بأن الطائرة تضع مكبرات صوت ليبدو مكان الضربة قريبًا فيما بعيد جدًا.

يرعبه أنه لا يعرف شيئًا مما يدور حوله. أراد الوقوف على النافذة ليحدق فى الظلام لعله يفهم شيئا؛ لكن الظلام لم يأته إلا بمزيد من الخوف ومن أصوات الطائرات وأزيز الرصاص وزعيق سيارات الإسعاف. قال إن أفضل سبيل هو النوم لعله يحلم بالذى جرى فيراه حقيقة.

علمه الظلام أن ينام مبكرًا حيث لا شيء يمكن أن يفعله فى العتمة

سوى التحديق فى الفراغ. فينام ليصحو مبكرًا قبل الشمس ليشرب قهوته على أكثر من مهله وهو ينظر من النافذة إلى البحر الذى لا تجوبه إلا البوارج الحربية وريح كانون الشديدة.

بعد قليل سيستيقظ الأطفال ويبدأ نهارهم المليء بالأسئلة التى لا تحمل لهم إلا إجابات تقول عيونهم إنها غير مقنعة، لكنها تكفى فى هذا الوقت الذى ينقطع فيه عن العالم مثل جهاز كمبيوتر غير مشبوك بالكهرباء.

المنشار

الرجل يقص الشجرة الضخمة هناك. شجرة الجميز الهرمة، التى ولدت قبل أن تولد البيوت فى الحارة، تهوى غصونها مثل ريش طائر يموت بين السحاب. منشار الرجل الكهربائى مثل بعوضة شرسة تقص حكايات طفولتى، حين كنا نلهو فى عب الشجرة، التى كانت اللون الأخضر الوحيد المتبقى فى حارةٍ من الأسمنت والإسفلت والرمل الذى لا يجلب إلا الغبار.

حتى سقراط كان يتذمر من نزع أوراق أشجار التلال المحيطة بأثينا.

فك ارتباط

الشرطى الكسول يجلس على ناصية الشارع عند تقاطع الطريق الكبير، فيما إشارة المرور معطلة دائمًا، إما لأن الكهرباء قاطعة كالعادة فى أغلب الأوقات، وإما لأن جهاز التشغيل لا يعمل فى أحيان أخرى، وإما لأن موظف البلدية راحت عليه غفوة فنسيّ أن يُنظم شبكة التحكم.

دائمًا هناك سبب.

أبواق السيارات تتسابق فى الزعيق، والشرطى يضع ساقًا على أخرى، غير مكترث بالضوضاء التى يحدثها ازدحام السيارات على المفترق!

كان لا بد لثلاث سيارات أن تصطدم، وأن يموت أربعة شبان وطفل كى ينتبه الشرطى ويفك ارتباط ساقيه ويقف لتنظيم المرور.

وربما بعد فوات الأوان.

حالة غرق

كان الموج شقيًا. زبد ورغوة تطفوان فوق أجساد الفتية وهم يتراشقون الماء. وكان فى الأفق ثلاث نوارس تذهب غربًا، ولا شيء فى الأفق يدل على نهاية البحر الأبيض. الشمس بدأت تهوى للأسفل. التهبت حوافها وتضخمت، وأخذت مثل ورقة شجرة تتدلى فى قاع الوادى. الشاطئ مزدحم. يظن الناظر أن أهل غزة قد تركوا بيوتهم واستوطنوا ضفاف البحر، وبيوتهم فارغة. وكان البحر الجهة الوحيدة التى يقدرون الذهاب إليها لحماية أنفسهم من قسوة تموز. الخيام تنتصب على الرمل. النسوة والفتيات يذهبن ويخرجن من قلب القماش. ثلاث فتية تجرءوا فى الذهاب بعيدًا وبدت أيدهم وهى تعلو فوق زبد الموج كأنها تطلب النجدة. المرأة العجوز قالت بشيء من اللامبالاة "الشباب بتغرق".

لم يسمعها أحد.

المنقذ فى الكابينة الخشبية، التى تقف مثل صخرة ضخمة على الشاطئ، كان يقصقص البزر، حين انتبه فجأة إلى أيدٍ ثلاث تطلب

لجدته. أمهل الاستجابة قليلاً لعل الأمر مزحة مثل العادة. يُحب أن ينقذ الآخرين خصوصًا حين ينجح فى أن يعيد الفرصة فى الحياة لشخص ظن الجميع أنه ميت. تخيل الإعجاب الذى سيناله ونظرات التقدير وبعض الغمزات من الفتيات وهن يتخيلنه فارس أحلام الليل. وينتشى. رغم ذلك كان يهاب المهام الجسام لأنها محفوفة بالمخاطر وبالنكسات عند الفشل. هذه المرة قرر أن ينتظر فالأمر قد لا يعدو أن يكون مزحة. واصل قصقصة البزر فيما كانت عيناه تواصلان التحديق فى الموجة البعيدة. قرر القفز للماء. والمرأة العجوز تصرخ هذه المرة: "الشباب بتغرق"!

كان عليه أن يقفز. وصلت قدماه رشقات الماء الباردة. فقدت عيناه التركيز فى الموجة. لم يكن هناك أيد تلوح ولا شيء. وكان الموج زبدًا، والماء يدغدغ الجسد. هز رأسه وهو يلوى جسده جهة الشاطئ فربما تمكن الثلاثة من العودة ومن النجاة.

طرد الفكرة وقال إن البحر هادئ اليوم.

ظل فى البحر

كان يحب الصمت كأنه لعبته الأثيرة، وحين يفتح فمه لا يتحدث إلا عن أصحابه الذين غرقوا،

لذا كان يحب البحر لأنه يذكره بهم.

أمضى نصف عمره يجلس فى المساء على الشاطئ، يضع كرسيًا من القش قبالة الماء بحيث بالكاد تلامس بقايا الأمواج أطراف قدميه. ما أن ينتهى من سيجارة حتى يلف سيجارة أخرى. وكانت كل واحدة تأتى له بقصة أحد أصحابه الذين غرقوا. وكان الماء كلما لامس أطراف أصابعه أثاره، يشعر بلذة يرتعش لها جسده فتسقط السيجارة من يده، فيلف أخرى!

وكان عابر السبيل الذى يمر من الشارع الموازى للبحر، والمرتفع قليلاً عنه، لا يرى منه إلا ظلاً يعبر فى البحر لرجل يجلس على كرسى ضخم، وكأنه يغرق.

المستحيل الآخر

ثمة شيء واحد فقط لا يمكن أن يحدث فى غزة هذا الصباح.

قد يعلن المذياع عن انسحاب الجيش، وقد يقف رجل السياسة ذو الكرش البرميل ليتحدث عن وقف إطلاق النار، ورئيس البلدية قد يقدم للجمهور سلة أخرى من الوعود عن تحسين الخدمة الكهربائية والمائية ورصف الطرقات (فالانتخابات البلدية على الأبواب)، وربما يظهر الوزير الفلانى يداعب ياقة بدلته وهو يقول إن الحكومة استطاعت أن تخفض نسبة البطالة والفقر اللذين ارتفعا باطراد فى السنوات العشرة الماضية ﴿دون أن يعنى ذلك أنه صادق﴾

وربما أيضًا يظهر فجأة فى الشارع عضو المجلس التشريعى، الذى انتخبه سكان الحارة ولم يروا وجهه إلا فى التلفزيون بعد أن نال أصواتهم.

كما ليس من المستبعد أن يأتى فجأة رئيس دولة تعتبر مهمة إلى غزة ليعلن دعم بلاده لمعاناة سكان المدينة وتفهمها لاحتياجاتهم، وأيضًا ﴿وهذا وارد طبعًا﴾ تقديم هبة مالية كمعونة لاجتياز الأزمة.

وبجانب ذلك من الممكن أن تعود الطائرات لقصف المدينة مرة أخرى، ويموت العشرات مثل كل يوم، وتبدأ الجنازات والمسيرات بتلوين خدود المدينة، ثم يطنطن الساسة حول إمكانية المفاوضات.

لكن!

ثمة شيء واحد فقط لا يمكن أن يحدث في غزة وسط هذه الزحمة: أن يعثر هذا الشاب، الذي يقف على ناصية الشارع في ميدان فلسطين، على الفتاة التي قابلها قبل أيام في سيارة الأجرة، واعتقد أنها تأخذ السيارة ذاتها كل يوم.

لم يكن يعرف أنها كانت تمر صدفة.

كم صدفة يمكن أن تحدث في حياته؟

عناوين الصحف

- الجيش يغلق طرقات غزة.
- معبر رفح مغلق لليوم العاشر.
- الرئيس لا يمكن القبول بشروط إسرائيل.
- مقتل ثلاثة شبان وطفل فى مواجهات فى نابلس وفى بيت لاهيا.
- الموفد الأمريكى لعملية السلام: أمريكا ستواصل جهودها رغم كل العقبات.
- المفوضية الأوربية: ثلاثون مليون يورو دعم لميزانية السلطة.
- رئيس بلدية غزة: البلدية تعمل كل جهدها من أجل مواصلة خدماتها رغم المعيقات.
- المقاومة الوطنية والإسلامية لن ترمى السلاح
- كتائب الأقصى: الهدنة يجب أن تكون متبادلة

﴿لا شيء فى الصحف عن إضراب سائقى سيارات الأجرة، الذى شل حركة أكثر من مليون ونصف مليون مواطن لليوم الثالث على التوالى، احتجاجًا على ارتفاع أسعار الوقود﴾

العاصفة

لم تهدأ العاصفة بعد

رغم أن الصمت يلف النواحى.

لا ريح، لا أمطار، لا زوابع، لا رعد، لا برق.

بيد أن العاصفة ربما تكمن خلف الغيم هناك أو فى عب أشجار الكينيا الكثيفة عند الأطراف.

رغم أن مقدم النشرة الجوية قال إن أيذى الأيام القادمة لا تحمل الكثير من المفاجئات، ثمة شيء فى وجهه كان يقترح أنه يخبئ الحقيقة.

الناس لم تخرج مثل عادتها عقب كل عاصفة، تتفقد الدمار الذى خلفته الليلة الفائتة: أسطح البيوت المتطايرة، الأكشاك المهدمة، الإسفلت الذى صار طوفانًا، الأشجار التى ترتفع جذورها إلى السماء، صفير الريح فى الأزقة الضيقة، الغيم الكثيف فوق رؤوسهم، صوت الأحذية الثقيلة فى الوحل.

لم يخرج أحد اليوم.

كانوا يعتقدون أن العاصفة لم تهدأ بعد!

موت عادي

ماتت جارتنا العجوز.

ماتت هذا الصباح. لم نفق على صراخٍ أو نواحٍ يخرج من البيت، كما لم تأتِ سيارة الموتى لتحمل جثتها الرقيقة، كما لم تمر عربات التنظيمات تنعى رحيلها. فقط لم تخرج مثل عادتها كل صباح لتجالس نسوة الحارة الثرثرة العابرة.

كان هذا يكفي ليقترح أنها ذهبت للا بد.

كانت ترقد على أحلامٍ ثلاثة لم تفقس أبدًا:

كانت تحلم أن يخرج أبنها الوحيد من السجن بعد خمسة عشر سنةً أمضاها في الممرات المظلمة.

كانت تحلم أن يعود فجأة زوجها، الذي اختفى عقب الحرب ولم تسمع عنه خبرًا بالحياة أو بالموت.

كانت تحلم أن تزورها أختها، التي افترقت عنها بعد النكبة ولم ترها لخمسين حولاً وأكثر، حيث رمت بها الأقدار في المخيمات في لبنان.

أحلام لم تستطع أن تكسر قشرة الزمن القاسية.

كانت ابنتها، التى تزوجت وسكنت فى قطر، تقترح عليها كل صيف أن تأتى لزيارتها، على الأقل تغير جو. وكانت ترد الإجابة ذاتها "بلاش يرجع أبوكى أو يطلع أخوكى من السجن أو تيجى خالتك وما يلاقونى فى البيت".

وماتت وهى تنتظر فى البيت.

لم نفق على صراخٍ أو عويل، حيث لا أحد فى البيت غيرها. فقط لم تخرج فى الصباح لتجلس على باب البيت تثرثر مع نسوة الحارة.

ماتت هذا الصباح ولم تشرق عليها شمس!

حب

حين كانت طفلة قالت لوالدها، وهو يسألهم كم تحبيني: "بحبك قد الشباك" وأشارت للنافذة.

كانت أسنان فمها لم تكتمل وعمرها بالكاد أربع سنين. وضحك البيت. وقالت أختها الأخرى لأبيهم إنها تحبه قد البحر. وفتحت ذراعيها لتشير لسعة البحر. وقهقه البيت واهتزت جدرانه.

أخوها الأكبر قال إنه يحبه مثل عينيه. وكانت عيناه داكنتين مثل قطعتين من الفحم. وانشرح الأب لهذا الحب الكبير. نظر إليها وقال بسخرية "قد الشباك"، وضم يديه في الإشارة لمساحة الشباك الضيقة.

وضحك الجميع إلا هي وقفت تنظر من الشباك إلى العالم الرحب الذى لم يقبل به والدها.

اليافطة

كانت يافطة المحل الكبير تقول إنه مخبز المدينة. بعد أسبوع كانت يافطة أخرى تقول إنه سوبرماركت الشعب. بعد شهر تقريبًا كانت يافطة جديدة تقول إنه محل للسباكة. هذه المرة استمرت اليافطة أكثر من شهر قبل أن تأتى يافطة أخرى تقول إنه مطعم للكباب. هذه بدورها لم تصمد أسبوعين حيث قالت اليافطة الجديدة إنه "بوتيك الأناقة".

يبدو أن هذه اليافطة كانت أكثر حظًا؛ إذ إن الأمر استغرق اليافطة الجديدة شهرين قبل أن تعتلى واجهة المحل لتقول مش صحيح لقد صار الآن محلاً لبيع القرطاسية. بعد أسبوع، ربما أقل بيوم، كانت اليافطة تقول إنه محل لبيع الكاسيت. أما اليافطة التى زينت واجهة المحل بعد ذلك بثلاثة أسابيع فقد اقترحت أنه محل لبيع الأحذية.

الآن هناك يافطة صغيرة معلقة على باب المحل تقول "محل للإيجار".

منع تجول

علمتنى الوحدة أن أحب التفاصيل، أن أستطيع التحديق فى فنجان الشاى، وأرى كيف يتصاعد البخار، وأرى كيف يتلاشى مثل غيمة خلف زجاج النافذة، وأن أعتقد أن صوت الطائرة يشبه صوت الحسون.

وأن زامور سيارة الإسعاف ليست إلا غلطة إصبع عازف البيانو فى البيت المجاور، وأن الشجرة التى لم تعد تطل من طرف الشارع ذهبت فى نزهة مع صديقاتها، وأننى أعبث فى أوراقى القديمة لأننى أبحث عن عنوان صورتى حين كنت طفلاً، وأن لدّى فائضًا من الوقت للحديث مع صورة أمى المعلقة على الجدار، لا بد أنها تفتقد صوتى (وأنا كمان أفتقد صوتها)، وأننى لا أعرف كيف أُزجى هذا الوقت الطويل حين أكون أسير الجدران الأربعة، لا أقدر على الخروج إلى الشارع.

غيمة

كانت صيفًا.

لم تكن صيفًا تحديدًا، لكن كانت الشمس أشد قسوة من وهج آب.

كانت تحديدًا آذار!

وكان يذرع شارع "النصر" بمعطفه الأسود ذي الياقة السكنية، وكانت خطواته متعثرة بعض الشيء. كان الشارع خاليًا إلا من وجوه المارة التي كساها التعب وأرهقها غبار اليأس، مثل رسومات باهتة في دفتر تلميذ مدرسي. وكانت ذراعاه تتعانقان خلف ظهره في توتر لا يمكن إخفاؤه.

كانت السماء صافية تخلو من الغيوم، في ذلك اليوم، إلا من غيمة تطوف في ذاكرته حين تعصف به ريح الحنين، وتذهب إلى الفتاة التي تركها هناك حين جاء في الصيف لزيارة أهله، ولم يستطع العودة فالمعابر والمنافذ مغلقة.

حين جاءت معه الصيف الماضي لزيارة غزة قالت له إنها تحب هذا الشارع من كل شوارع غزة، لا تعرف لماذا. لكنها كانت تحب أن يسيرا معًا فيه، وكانت غزة تبدو جميلة!

كانت الغيمة تمطر ألمًا في القلب. لم يكن يبكي. كان فقط يسير في شارع "النصر"، لا يرى أحدًا، لا يتحدث إلى أحد، فقط يقطع الشارع في آخر المساء، ثم يذهب للنوم، وقد أرهقته الغيمة الثقيلة في القلب.

الجنائني

وقت الظهيرة يقف مثل الجنائنى على طرف الشارع، ينتظر أفواج الفتيات الخارجات من المدرسة الثانوية. كان يتظاهر بأنه ينسق الأزهار، التى تعتنى بها أمه على باب البيت، وحين تخرج وهى تطوى يدها على كتبها يبتسم مثل زهرة تتفتح لأول مرة، وكانت هى تبادله الضحكة خلسة، كى لا ترى الفتيات النور الذى يصل بين أطراف شفتيها وعينيه، ولم تكن تعرف أن قصتهما أصبحت مثل خبر الصحيفة الأول.

اليوم سيقف أيضًا وقت الظهيرة، ولكن ليس مثل جنائنى ينسق الأزهار، بل مثل تمثال لن يتحرك مشدوهًا حين تخرج كل الفتيات إلا هى، وحين يكاد بوَابُ المدرسة يغلق الباب دون أن يُطل وجهها. وسيظل لأيام لا يعرف عددها يقف مثل التمثال لا يتحرك لعل باب المدرسة يأتى له بها.

كيف له أن يعرف أنها وحين كانت تحتفل بعيد ميلادها السادس عشر، جاء أحدهم لخطبتها دون أن تدرى.

واحدة منهن لا بد أنها ستذهب إليه عما قليل لتقول له الحكاية، «لست أنا بالطبع».

أزمة سير

المفترق الكبير وسط المدينة مغلق. ترتب على ذلك أن حركة السير تعطلت في كل الشوارع المركزية في المدينة من أقصاها إلى أدناها. ولما كان الأمر كذلك، فقدت دبت الفوضى في الحارات والأحياء، وامتدت الضوضاء إلى الأزقة والطرقات، وأصابت أمعاء المدينة الضيقة والملتوية.

شاهد عيان قال للإذاعة المحلية إن شجارًا عائليًا بين حمولتين أدى إلى إغلاق المفترق. شاهد آخر زعم لإذاعة منافسة بأن الأمر لا علاقة له بشجار عائلي ولا ما يحزنون، كل ما في الأمر أن عربات الباعة في سوق "فراس" وسياراتهم أدت إلى اختناق في عنق الشارع، الذي يضيق كثيرًا عند طرف السوق.

مراسل تلفزيون فلسطين قال إنه شاهد سيارة شرطة تطارد سيارةً مدنية تسير بسرعة جنونية، وختم بأن السلطة عازمة على فرض سيادة القانون مهما كلف الأمر، ووعد المواطنين بأن الاختناق المروري مؤقت وأن الأزمة ستنفرج.

لكن المسئول ذى الكرش البرميل وقف بعد ربع ساعة على إحدى الفضائيات العربية وقال إن أطرفًا خارجية تُهّول الموضوع لأسباب غير وطنية، وأن كل ما فى الأمر أن حادث طرق مروع قد وقع، وأن الحكومة بالتعاون مع البلدية تقوم بعمل اللازم.

غير أن مراسل فضائية أخرى أطل من وراء الشاشة بعد ربع ساعة ليقول بأن هناك ضحايا وإصابات وختم خبره العاجل بأن مصدره من قسم الطوارئ فى مستشفى الشفاء.

من يعرف حقيقة ما حدث؟

غزة!

هدأ كل شيء!

صارت غزة مثل امرأة عجوز أنهكها الزمن، تجلس عند الإشارة الضوئية، لا ترى شيئًا إلا الوميض الذى لا تميز لونه!

بين الفترة والأخرى قد يند عنها صوت يقترح أنها ما زالت حية، أو قد تبدر عنها حركة توحى بأن الدم بالكاد يصل محركات جسدها.

أما المارة والسيارات والشاحنات الكبيرة وصوت المذياع من نافذة الشقة المرتفعة على الطابق الثامن فلا تقترح أكثر من أن أحدًا لا يبالى بهذه العجوز الهرمة!

هكذا هدأ كل شيء!

زهرة

كان صرير القلم مثل سيف يلامس خد السماء.

والطائرة تكاد تبتلع المخيم، تتجول بين الغيوم تسقط قنابلها مثل مصابيح تنفجر، وكنا نخاف ونرتعد. وكان الطفل يخربش على الورقة. كان الدفتر مليء بالخربشات التى لا تشبه شيئًا. لا شيء تحديدًا ولا حتى الزهرة التى ما زالت تقف فوق الغصن فى الأصيص الموضوع على علية الباب. كان الجميع مشغول بترتيب البيت بعد أن هزته الغارة الأخيرة. أدوات المطبخ المهشمة على الأرض والسجادة المغبرة وغلاية الشاى المدلوقة فوق الطاولة البلاستيكية. ثم صارت رسمة الطفل تشبه زهرة نظرة، وكانت بتلاتها تتمدد على الورقة فيما قلم الطفل يمعن فى رسم ثلاث بتلات يجعلها تغطى الصفحة. وكان هدير المحركات فى السماء يجد صداه فى الخربشة السريعة التى حولت الزهرة إلى بعوضة بجناحين كبيرين. أسرع إلى النافذة، كانت الزهرة ما تزال تنتظر قطرة مطر تحذفها لها الغيمات الغامقة فى الأعلى، وكانت يده كما عيناه تنتقل بين الزهرة والطائرة.

في الشارع كان الصبية يلملمون شظايا القذائف التي هطلت الليلة الماضية ورجل الشرطة تتدلى بندقيته للأسفل منهكًا يرتشف كأسًا من الشاي.

كانت المسافة بين النافذة والأرض أطول من قدميه وتعذر عليه أن يقفز للشارع. أزاح أصيص الزهرة قليلاً غير أنه لم يقدر على ملامسة الأرض. حدق في السماء كانت تكاد تمطر، والغيمات تكاد تتلاطم مثل موج هادر. اقلع عن محاولة القفز. وخرج من الغرفة مسرعًا باتجاه باب البيت الصفيحي.

كانت الأم ما زالت مشغولة في مسح وجه الطاولة البلاستيكية حين تعثرت قدماه بغلاية الشاي النائمة على الأرض تنتظر من يوقفها ويعيدها إلى المطبخ. انسكب تفل الشاي على الأرض، لم تتذمر الأم، هزت رأسها. كان الدفتر يتدلى من يديه. وقف في الشارع فتح الدفتر وامسك بالقلم. نظر للسماء كان ظل الطائرة يتمدد فوق صفحة الدفتر، يتطابق مع خربشته، يسكنها، يحتلها.

ثم هوت الطائرة ونزلت على الدفتر.

قيلولة

كان النعاس يقفز إلى جفونه وبالكاد يقوى على الجلوس. كان غداءً شهيًا وكان النوم على السرير فى الغرفة أفضل ما قد يفعله بعد ذلك. تمدد على السرير، خيل إليه أن الليل قد حل فجأة حين بدأت جفونه تتشابك مع رموشه ورأى دوائر بيضاء تقفز فى المسافة بينها. سحب الشرشف الأزرق وأخذ نفسًا عميقًا مثل من يبدأ رحلة طويلة: رحلة النوم.

فجأة ارتفع صوت آذان العصر من مآذن المساجد الثلاثة التى تحيط بالبيت. تململ وهو ينتظر أن ينهى المؤذن آذانه. على فترات مختلفة انتهت المساجد الثلاثة من الأذان. قبل أن يحاول القفز مرة أخرى فى النوم تذكر أن المآذن ذاتها ستدعو لإقامة الصلاة بعد ربع ساعة. لا بأس لو انتظر قليلاً. تلهى يتذكر ما عليه فعله بعد أن يستيقظ بعد ساعتين، خلال ذلك أفلح النوم بالإجهاز على كل مقاومته، وقبل أن يستقر عليه مرة أخرى ارتفعت المآذن الثلاثة بالدعوة لإقامة الصلاة. أدرك أنه ما أن تنتهى المآذن من النداء حتى يكون بمقدوره النوم عميقًا ويصدر شخيرًا من شدة التعب.

أغمض عينيه وراح يستعد لمتعة النوم العميق فانطلق صوت بائع الخضار ينادى بمايكروفون يدوى على البطاطا والبندورة والجزر. مرت عربة الخضار التى يجرها الحمار وما أن توارى صوت البائع فى الشوارع البعيدة حتى كان نهيق الحمار يفد ضعيفًا مثل بقايا ظل خافت.

لم تمر عشرة دقائق حتى جاء صوت عربة تعبئة الغاز بصوت دقاتها الموسيقية المتتابعة وهى تطوف الشوارع والأزقة توزع اسطوانات الغاز وتأخذ الفارغة منها من البيوت.

هذه المرة كأنه غفا قليلاً قبل أن يرمى الشرشف عن وجهه متأففًا من صوت سيارة الشرطة تهرول فى الشارع. لا بد أنها تصحب مسئول الشرطة الجديد الذى سكن لحسن حظه (أو لسوئه) قبل أيام فى الحارة.

قال لنفسه إنه لا يستطيع النوم، يجب أن يتنازل عن الفكرة. من العبث المحاولة. لكن الهدوء الذى حل فجأة لأكثر من ربع ساعة كان كافيًا لإغرائه. هذه المرة تسلل النوم خفيةً إليه. ثمة هدوء لا يقاوم ودعوة حميمة للنوم فرت فجأة مع ارتطام كرة الأطفال بجدار البيت الخارجى.

قفز عن السرير فبعد عشرة دقائق موعده.

المسئول الجديد

صار شيخ الحارة مسئولاً كبيرًا فى الوزارة، وصار قلما يراه الناس بينهم فى المسجد. وفى الصلوات القليلة التى يطل فيها مسرعًا داخل المسجد يكون محاطًا بالحراسات والجنود المدججين بالهروات. ولن يفوته فى كل مرة أن يذكر الناس بأن المتربصين بالدين كثيرين (يقصد المتربصين به) وأن هذه الحراسات والجنود ليست إلا لوأد أى فتنة. لكنه لن يفوته أن يأتى إليهم يوم الجمعة منددًا وغاضبًا ومهاجمًا خصومه السياسيين وقد يُخرجهم من الملة ويُحرم التعامل معهم لأن مصلحة الناس هى من مصلحته وعلى الناس أن تفهم ذلك.

الآن ابتاع بيتًا (كما يسمعون همسًا) فى المدينة ولن يفوت محبيه أن يقولوا متواضعًا ليس كبيوت كل المسئولين، وتزوج بفتاة شابة أصغر من صغرى بناته، لأن أعباء الحكم تتطلب منه أن يجد راحة أكبر فى البيت، فالعروس الجديد لا بد تخفف بشفتيها المكتنزتين (لم يراهما أحد، ولكن على الأقل هكذا يقولون فى الحارة) عن صدره قرف اليوم حين يعود للبيت.

كان فيما مضى يجلس معهم قبل وبعد كل صلاة، يصل للمسجد قبل الصلاة بوقت يكفى لكى يلقى عليهم مواعظه التى يتحفها بالشواهد والأدلة من حياة الأسلاف لأن ثمة نقص فى حياتنا لا يسده إلا التاريخ كما كان يقول لهم. وكثيرًا ما كان يعدهم بمستقبل أفضل لأن الخير كامن فينا (يقصد فيه وحده) ونحن لا نقدر إلا أن نكون أخيارًا، أما الأشرار فليسو منا. وهكذا فإنه كان يشكل للكثيرين مظلة تفيض تحتها روحهم بالنسائم. كان هذا فيما مضى.

فجأة (ربما ليس إلى هذا الحد) صار مسئولاً كبيرًا ولم يعد يسب كثيرًا على المُلك الذى قال عنه يومًا إنه مفسدة. قال لهم ذات جمعة بعد أن تقلد موقعه : ليس كل الحكام فاسدين فهناك من يحكم باسم الله وهناك من يحكم باسم الشيطان.

فى الحقيقة حتى كلامه هذا كان يجد صدى فى الحارة وكان يجد من يدافع عنه، لكن حتى هؤلاء صاروا يشتاقون لأن يروه بينهم، يجالسهم ويعظهم كما كان يفعل.

لن يشتكوا له أحوالهم ولا انقطاع التيار الكهربائى ولا غلاء الأسعار ولا تغول رجال الأمن ولا شيء فالوضع تمام (الفيل يا ملك الزمان) لكنهم مشتاقون له فحسب.

صياد

كل صباح وقبل أن تخرج الشمس من مرقدها يقود دراجته إلى البحر. يضع شبكة الصيد فى الخلف وقبعته المصنوعة من القش فتبدوان مثل طفل يجلس خلفه. وفى مرات كثيرة يخرج حتى قبل أن يتفتق ضوء النهار فيما العتمة تلف المخيم. كان فى عيوننا صيادًا شغوفًا بالبحر وبالسمك. وحين يعود فى المساء كان الصبية ينظرون إلى الشبكة والقبعة ويتخيلون السمك بأنواعه المختلفة ما زالت فيه رائحة الحياة.

وفى ساعات المساء الأخيرة يجلس أمام بيته ينظف شبكته مما علق بها ويرتق ما تهتك منها بمتعة لا تضاهيها إلا لحظة يرمى بها فى قلب الموج. وكان الصبية يلتفون حوله بشغف يحلمون باللحظة التى يكبرون فيها ويصبحون مثله. أما فى الشتاء وحين يتعذر عليه الجلوس أمام البيت كان يجلس فى صدر البيت يمارس هوايته فى التخفيف عن شبكته التى لن يفوت العارفين القول إنه ورثها من أبيه الذى بدوره جلبها معه من يافا عند الهجرة.

لم تكن هذه كل الحكاية. فحقيقة الأمر التى لا يعرفها أحد هى أنه لم يفلح يومًا فى الصيد. كان عادة يرمى شبكته وهو يصيح فى الموجة ورغوة الزبد تطفح فوق وجهها ثم بقوة العارف يلملم أطرافها. وكما فى كل مرة وبنفس الابتسامة النضرة يتفقد الشبكة زاوية زاوية يبحلق فى كل عيونها ولكن دون فائدة. كان يعلق فى شبكته الطحالب وبعض المحار الصغير وربما علبة كولا قذفها المستجمون فى البحر أو قطعة خشبية من سفينة ماتت فى قلب البحر فى مكان ما أو قطعة من الإسفنج سقطت من الصيادين. وقلما علق بين ثنايا الشبكة سمكة سردينا أو حبة سروس أو سلطمونة (وكان يكره ذلك لأنها تمزق الشبكة). كان كما قد يقول أحدهم ينظف البحر من الشوائب.

لم يكن الأمر يختلف من يوم لآخر، ولم تفتر همته ولم تجف ابتسامته، ولم يغير شيئًا من عاداته. عند العصر يلملم شبكته ويضعها خلفه على الدراجة متوجة بالقبعة من القش ويهبط الطريق نحو المخيم.

الآن تبدلت أشجار حقول الشوك ببنايات عالية وبيوت متناثرة فى كل الأرجاء وصار الطريق مسفلتًا بعد أن كان وعرًا. تغيرت الدنيا وظل هو كما كان قبل أربعين سنة حين ورث شبكته من والده.

فى الطريق إلى البيت يقول لنفسه لا بد أن غدًا سيكون الصيد أوفر والسمك أكثر. ويمر اليوم الثانى والثالث. ثم مع اقتراب الشتاء يمنى

نفسه بأن العام الفائت كان سيئًا أصلاً وأن السمك كان قليلاً بشكل عام وأن العام القادم لا بد أن يكون أفضل بكثير. العام القادم سيكون البحر مليئًا بالسمك وسلته ستنتفخ وتمتلئ بالصيد وقد لا يقوى على جر الشبكة من ثقل ما سيعلق فيها.

لكن كان منظره وهو يدخل المخيم على دراجته الصدئة ذات الزامور الأسود والشبكة والقبعة خلفه يعطي الجميع إحساسًا بأن ثمة صيد وفير في البحر، ولم تكن ابتسامته تفارق شفتيه مقترحة بأن اليوم أيضًا كان جميلاً رغم كل شيء.

احتجاج

قرر الاحتجاج على الضجيج الذى تصدره مواتير توليد الكهرباء التى باتت تنتشر فى الشارع فى الآونة الأخيرة. فالشارع الهادئ الصامت صار بعد أن انتشرت فيه محلات الإنترنت والكمبيوتر وبعض مقاهى الألعاب صاخبًا يعج بالحركة فى الليل. لكن هذا لم يكن ليزعج السكان كثيرًا لولا المواتير الضخمة التى صارت تنتصب أمام المحال المختلفة تجأر بصخب لا يترك فراغًا فى الأذن. فالكهرباء صارت عملة نادرة لا تزور بيوت المخيم إلا حين تتلطف البلدية والشركة على السكان ببضع ساعات متعللة بأسباب عديدة لم تعن يومًا شيئًا للمواطنين.

كان بيته الوحيد الذى يظل معتمًا حين يبدأ الجميع بإنارة بيوتهم بالمواتير المنزلية التى صار الناس يشترونها من مهربى الأنفاق. كان يكتفى بالشمعات الثلاثة التى تضيء حوش الدار وغرفة النوم الصغيرة لولا صوت المواتير الذى يصخب داخل البيت مثل قرد ينطنط فوق سقف البيت الصفيحى.

فى أول المساء وحين تبدأ مواتير المحال الضخمة هديرها وتزداد عتمة البيت مقارنة مع البيوت التى تبدأ تتنفس بالضوء حوله يقرر أن يخرج للشارع ليقول كفى فهو بحاجة لقليل من الراحة. لو أنهم يشغلونها لبضع ساعات ثم يطفئونها ليتمكن من التقاط النوم المتناثر فوق جفونه. سرعان ما يمنى نفسه بالصمت فمن غير اللائق أن يختلف مع الناس ويقف فى وجههم. ثم أن هذه أزمة وتنتهى وتعود الأمور إلى طبيعتها.

هذه المرة قرر أن يرفع صوته. توجه لجيرانه جارًا جارًا، كلهم كما أحس تعاطف مع ما أسموه "معاناته"، لكنهم يفضلون أن لا يتدخلوا. ولكنهم مع حقه فى الشكوى. اقترحوا أن يتوجه أولاً لأصحاب المحال بالحسنى قبل أن يذهب للشرطة "عشان الجيرة".

دب زعيقهم الشارع وهم يتهمونه بأنه يقف فى وجه رزقهم. فلا يمكن أن تعمل محلاتهم إلا على الكهرباء وهم بالتالى لا يستطيعون إلا تشغيل هذه المواتير.

"ولكن شغلوها نصف الوقت وريحونا من همها النص التاني".

"رزقتنا أهم".

ألتم سكان الشارع عليهم. قرر أن يتراجع قائلاً لنفسه "مالى وهالمشكلة"، لكنهم قرروا تصعيد الموقف. نادوا الجيران الآخرين

وطلبوا موقفهم. لم يترددوا فى القول بأحقية أصحاب المحال بتشغيل مواتيرهم، "رزقتهم". أدرك وقتها الورطة فجيرانه رغم شكواهم وتذمرهم من هذه المواتير إلا أنهم مستفيدون حيث أن هذه المحال ملكهم ويقومون بتأجيرها. لم يتحرك معه أحد؛ لم يتفوه أحد بكلمة حتى من باب التعاطف. كلهم مستفيد. وحده لم يكن يقدر على بناء البيت الصغير الذى ورثه عن أبيه ولو كان فعل ذلك لتمكن من تأجير واجهته محالاً تجارية مثلما فعل بقية الجيران.

جاءت الشرطة هرولة وبالسيارات. توقفت الحركة فى الشارع الذى اكتظ بالبزات الزرقاء وبالمواطنين الذين جاءوا من كل صوب لتقصى الأمر. تمنى لو أنه لم يقم بالشكوى من أساسه. هز ضابط الشرطة ذى اللحية الكثة رأسه وهو يداعب المسدس المتدلى على خاصرته وهو يستمع لشكوى أصحاب المحال من الأزمة التى افتعلها لهم وإعاقته لعملهم وقطعه لرزقهم وحتى احتجاجه على الوضع السياسى ونقمته عليه لأن قطع الكهرباء قضية سياسية والاحتجاج عليها هو احتجاج على السياسة فى البلاد.

فتح فمه مستغربًا هذه التهم. اقترب من الضابط متوددًا معتذرًا بأنه لم يكن يقصد كل ذلك. كل ما فى الأمر أنه حقًا لا يقدر على الجلوس فى البيت أو النوم من الضجيج التى تصدره هذه المواتير، وكان يريد أن

يطلب منهم تخفيف استعمالها فى الليل فقط وأنه لم يكن يقصد شيئًا أبعد من ذلك، وأراد أن ينسحب من المكان.

شده الضابط من يده وأمره أن يصعد فى سيارة الشرطة فلا يجوز أن يترك المخلين بالنظام وبالأمن دون عقاب، كما قال.

قهوة سريعة التحضير

أعجبته الفكرة، أن يصبح مسئولاً وكبيرًا حتى أنه لا يحتاج لشيء سوى الظهور على شاشات التلفاز وإلقاء التصريحات المختلفة التى تؤكد "قياديته". لا ينقصه شيء بالمطلق يعرف كيف يتحدث، ليس فى الأمر من معجزة، من السهل "تصفيط" الكلام وتنميقه والتأكيد على المصلحة الوطنية وعلى الوطن. فقط الكاميرا وحدها تستطيع أن تصنع منه نجمًا سياسيًا، فأمواله كلها ومصانعه الثلاثة لا تقدر على هذا ولا حتى عائلته الممتدة فى نواحى غزة المختلفة.

وضع ساقًا على ساق فيما يداه مشبوكتان خلف رأسه وهو ممدد على السرير يبحلق فى سقف الغرفة والصور تركض فى رأسه تتسابق أمام عينيه وفلاشات الكاميرات ومانشيتات الفضائيات تتسابق لتنقل أخباره. قفز عن السرير. وقف خلف النافذة يتأمل البحر المضطرب مثل عقله، كانت الريح شديدة والصيادون يدفعون قواربهم الصغيرة فوق الموج قبل أن تنطلق نحوهم رصاصات القوارب الإسرائيلية.

هكذا بدأت القصة.

على الموقع الالكترونى الذى يملكه صديقه (هو من موله له) كان الخبر الأول يقول: أن مسئولاً فلسطينيًا يدين محاولة الطرادات الإسرائيلية إغراق سفن الصيادين قبالة شواطئ مدينة غزة، وسرعان ما انتشر الخبر فى المواقع الإخبارية المختلفة. كان يعرف أن لديه مجموعة من الأصدقاء المنتشرين فى المؤسسات الصحفية المختلفة وبإمكانهم أن يحققوا له فكرته. لم يكن بحاجة للضغط عليهم، ما عليهم إلا أن يقوموا بعملهم فقط، يصدرون التصريحات باسمه أو ينقلون تعليقًا له حول حدث ميدانى أو سياسى.

وهكذا سارت الأمور.

مع أتون الانتفاضة كان لا يكف عن إطلاق التصريحات النارية الصاخبة عن المقاومة وعن ضرورة مواجهة التحديات والتهديدات التى يفرضها العدو على الشعب. وعادة ما كانت تصريحاته مليئة بالكلمات التى تستدر عواطف المواطنين وتصف صمودهم رغم القصف والدمار والاجتياح. وذات مرة أعطى تصريحًا لشبكة تلفزة من أمام أحد البيوت المهدمة وهو يجلس على ركام البيت مع المرأة العجوز صاحبة البيت الذى بنته بسنى عمرها. ولم ينس، بعد أن غادرت الكاميرا، أن ينقد المرأة مائة دولار.

ولم يفته فى غمرة الحديث عن إطلاق المفاوضات مرة أخرى التعبير عن رفضه للمفاوضات. وحين رأى أن المزاج العام مع العملية

التفاوضية رحب بالمفاوضات ومقدرتها على تحقيق مطالب الناس داعيًا إلى أن تدار هذه المفاوضات بطريقة سليمة. ولمع نجمه أكثر إذ زادت الفضائيات التى يتحدث إليها على الهواء وتنوعت وصار لا يتردد بالحديث بالإنجليزية، ودائمًا كان التعريف تحت اسمه يقول "قيادى فلسطيني".

ومع فرض إسرائيل للحصار على قطاع غزة صار الحصار مادته المفضلة للحديث، فالحصار جريمة ضد الإنسانية وهو شكل من أشكال العقوبات الجماعية المنافية للقوانين والشرائع الإنسانية. وكان بارعًا فى جمع المعلومات والأرقام وربما تلفيقها حول معاناة الناس التى لم يعشها يومًا. وكان من خلف مكتبه الفاخر فى احد الأبراج التى تنتصب قبالة البحر يتحدث عن عذاب الناس وفقرهم. وفى مرات كثيرة فيما يموت الناس وهم لا يستطيعون المغادرة للخارج لتلقى العلاج بسبب إغلاق المعابر كان يدلى بتصريحاته هو عن معاناتهم وهو فى أحد فنادق القاهرة إذ أن معبر رفح الحدودى مغلق فى وجه الناس فقط وليس فى وجه المسئولين الذين يسافرون للمصلحة العامة.

وعندما انطلقت جولات الحوار الوطنى بعد الاقتتال الداخلى لم يكن أمام جميع التنظيمات إلا أن تقر بكونه شخصية وطنية مرموقة لا بد أن يكون لها دور فى هذا الحوار، فصار عضوًا فى الوفود المشاركة وصار يجوب العواصم العربية متحدثًا فى المؤتمرات المختلفة عن

ضرورة إنجاح الحوار داعيًا الأطراف المختلفة للتنازل عن مصالحها الفئوية الضيقة لتحقيق ذلك. وصار اسمه يتردد فى كل التشكيلات الوزارية التى تناقش، وقيل انه عرض عليه تسلم سفارة فى الخارج، كما قيل أنه يفكر فى خوض الانتخابات التشريعية فى قائمة خاصة به. وترددت إشاعات كثيرة ومتنوعة.

وفى المساء وحين يضع ساقًا على ساق ويشبك يديه خلف رأسه ويحلق فى سقف الغرفة فيما النافذة تأتى له بزبد الموج وصوت الرصاص الذى تطلقه البوارج الإسرائيلية على سفن الصيادين، يبتسم وهو يرى كيف الحياة سهلة والمسئولية ممكنة مثل القهوة سريعة التحضير.

الثرى الجديد

فجأة أدرك أهل الحارة أن والد المسئول الجديد كان مليونيرًا كبيرًا. لم يكونوا يعرفون هذا من قبل رغم أن المسئول ولد بينهم ووالده عاش ومات بينهم فى الحارة. لكنهم لم يكونوا يعرفون ذلك. فالرجل الذى كان يبيع الفلافل والفول فى عربة صغيرة على الشارع والذى لم يكن يملك فى الدنيا (كما كانوا يظنون) إلا بيتًا من غرفتين ومطبخ وحمام فجأة يعرف جيرانه أنه كان أغناهم، فابنه الذى تقلد منصبًا مرموقًا فى أحد الأجهزة الأمنية صار له بيت كبير فى وسط الحارة وقيل أنه أيضًا تملك قطعة أرض على البحر يريد أن يبتنى فيها فيلا ليست بالكبيرة، كما سمع أهل الحارة أنه افتتح سوبرماركتًا ضخمة فى وسط البلد واشترى بوتيكًا للملابس يستورد له الملابس من الخارج عبر الأنفاق مباشرة، أما سيارته الفارهة فهذه من المؤكد أنها ملك للجهاز الأمنى الذى يقوده.

لم تثر الحراسات انتباه الجيران رغم أنها صارت تضايقهم وتنغص عليهم عيشتهم، لكن ما لفت انتباههم أن جارهم الفقير صار غنيًا، بل

لا بد أن يكون غنيًا من قبل، إذ أنه وبعد أقل من ستة أشهر من تقلده لمنصبه الجديد تملك ما تملك.

كانوا فى الماضى لا يرونه إلا قليلاً خاصة أنه خرج من السجن فكان الله قد افتقد والدته ووالده، وأمضى البقية الباقية من السنوات وحيدًا قبل أن تطارده قوات الاحتلال حتى بعد توقيع اتفاق السلام. وفى المرات النادرة التى يمر نهارًا على الحارة يلقى التحية مسرعًا دون أن يقف مع الناس، وكانوا يحيطونه برموش المحبة وأذرع الخوف. كان يعنى لهم أشياء كثيرة. وكانت قصص مطاردة قوات الاحتلال له مثار إعجاب الأطفال والفتيان والصبايا.

الآن باع بيت والده القاطن بين الأزقة واشترى بيتًا واسعًا على الشارع العام وأعاد بنائه وترميمه وصار مثل قلعة فى وسط الحارة بجدرانه الشاهقة وأبراج المراقبة التى تحيط به والكاميرات الكهربائية التى تنتشر على مداخل كل الشوارع الفرعية التى تقود له. ولم يعد الناس يرونه فى الشارع إلا من خلف زجاج سيارته الأسود حيث يراهم ولا يرونه.

وحين تردد أنه صار ثريا يمتلك السوبرماركت.والأرض والبيت والعقارات قال سكان الحارة إنه لا بد أن يكون قد ورث فجأة تركة لم يكونوا يدركون وجودها، فربما يكون والده قد ترك له مالاً وفيرًا من وراء بيع الفلافل والفول فى الحارة فهو كان صاحب العربة الوحيدة

فى الحارة منذ السنوات الأولى التى تلت النكبة أو ربما يكون والده قد ورث عن والده ثروة كبيرة نقلها معه الأخير من يافا أو ربما ورث شيئًا من طرف جدته. لا أحد يعرف. لكن المحقق أن هذا الثراء الزائد الذى اكتشفه أهل الحارة منذ أن صار مسئولاً أثار نقاشًا واستغرابًا واسعًا فى الحارة يليق بحالة البذخ التى ظهرت على صاحبه فجأة.

موزع الغاز

جاء يومه، وصار رجل الحارة الأكثر لفتًا للانتباه.

كان فيما مضى يستيقظ قبل شروق الشمس، يعلف حماره الذى يكون قد سبقه فى الاستيقاظ وملأ الدنيا نهيقًا وضجيجًا، وهو "يرفص" جدران بيته الصفيحية برجليه استقبالاً لنهاره الحافل بالمشاوير والسير فى الطرقات، جارًا عربته التى تتكدس عليها عشرات اسطوانات الغاز بعد أن يكون صاحبه قد صفها على العربة. يطوف شوارع المخيم ببطء وتأنى ليعطى للرجال والنسوة الفرصة لإخراج اسطواناتهم الفارغة حين يسمعون نغمة الموسيقى تخرج من جهاز تسجيل صغير مزود ببطارية كهربائية يضعه إلى جوار مقعده الأسود الموضوع فى مقدمة العربة. المقعد يقول إنه كان لسيارة قديمة لكنه مثبت الآن على العربة المحاطة بالمواسير الحديدية من الجهات الأربعة تاركة فراغًا فى الأمام ليجلس عليه الكرسى.

وفى المساء وبعد أن تكون الاسطوانات ممتلئة بالغاز يدور الشوارع ليوزعها على أصحابها بذات الرتابة والروتين. وما أن تغطس الشمس

فى البحر حتى يكون التعب قد أكل جسده والإرهاق بسط ذراعيه على كل أعضائه، وتورمت قدماه من الحذاء البلاستيكى الأزرق الفظ، واحمرت كتفاه من حمل الاسطوانات وتنزيلها. يعود بالحمار إلى بيته الصفيحى، يريح ظهره برفع العربة والبردعة، يعلفه ويسقيه، يمسح على رأسه مدركًا كم كان يومه قاسيًا. يرتمى الحمار على الأرض ويبدأ بتحريك جسده يمينًا ويسارًا فى الرمل نافضًا عنه تعب اليوم. ومثله هو يفعل بعد أن يغتسل بالماء الذى تكون زوجته قد سخنته له على الغاز قبل أن يغفو على الفرشة الكبيرة الممدة على أرض الغرفة مقابل الخزانة البنية القديمة.

بعد انقطاع الغاز بسبب الحصار ودخوله بكميات شحيحة تغير كل شيء فى حياته. كان حظه جميلاً. وجاء الحصار لصالحه حيث أن حارس المحطة الكبيرة كان نسيبه، وكلما سمح الجيش الإسرائيلى بدخول الغاز لغزة بكميات قليلة كان هو أول من يملأ الاسطوانات التى تكون قد تكدست في المخزن الجديد الذى استأجره أسفل البناية ذات الطوابق الأربعة فى الحارة. ولم يمض وقت قصير حتى صار بسبب هذه العلاقة التى وفرت له حظوظًا كبيرة أهم موزع للغاز فى المخيم. كان لا يُرى إلا واقفًا أمام المخزن الجديد يعطى أوامره للصبية الثلاثة الذين صاروا يشتغلون عنده يحملون الاسطوانات وينظمونها ويعطونها أرقامًا وأدوارًا، وإما متحدثًا عبر هاتفه النقال الذى اشتراه مؤخرًا.

بعد أقل من شهرين اشترى سيارة نقل متوسطة الحجم وصار يحمل اسطوانات الغاز عليها للمحطة. ولم يعد يدور في الشوارع يبحث عن اسطوانات الناس الفارغة بل صار الناس يتوافدون زرافات يحملون اسطواناتهم بأنفسهم إلى المخزن. ولكم سيكون المرء سعيدًا لو ابتسم له أو أشار له بالتحية أو تكرم وساعده هو بنفسه فى تنزيل الاسطوانة عن كتفه، لأن هذا قد يعنى أنه قد يدفع الاسطوانة قليلاً لتتقدم الأخريات فى طابور الانتظار.

وفى المساء يضع نرجيلته التى تتدلى منها خرزة زرقاء بخرطومها الملفوف بالقماش القرمزى أمام المخزن محاطًا بأعيان الحارة يتوسطهم المختار وإمام المسجد وناظر المدرسة، وصار هو سيد الجلسة.

وحيدًا ظل حماره يتمطى أمام البيت الصفيحى يفرك رأسه بطرف الباب وبين الفينة والأخرى ينهق دون أن يلتفت إليه أحد.

صعود السلم

حفظ درجات السلم درجة درجة، كما حفظ عن ظهر قلب بيوت الجيران في الطوابق المختلفة، وصار يمكنه الاستدلال على الطابق الذى وصل إليه وهو يصعد السلم أما من عدد الدرجات التى يكون قد قطعها أو من التفاصيل الصغيرة الموجودة أمام الأبواب أو على درابزين الدرج. صار يعرف التفاصيل الدقيقة لسلم العمارة بعد أن صار لزامًا عليه أن يصعد للطابق التاسع كل يوم بعد أن صار انقطاع التيار الكهربائى عادة من عادات الحياة فى غزة.

عند الظهر وعندما يعود لتناول طعام الغداء يكون بيت الدرج مضيئًا بسبب أشعة الشمس وتكون الروائح تفوح من بيوت الجيران على الطوابق المختلفة. بعد شهرين صار يحفظ الرائحة التى سيشمها من كل طابق وصار يعرف ماذا ستطبخ الجارة الفلانية هذا اليوم من أيام الأسبوع وما الذى ستطبخه الجارة الثانية. ويعرف موعد نفض السجاد وموعد سقاية أشجار الزينة أمام البيوت.

وفى الليل كان يشعل هاتفه الجوال ليضيء تحت قدميه وهو يصعد

الدرجات درجة درجة، وفى أوقات كثيرة يكون هاتفه فارغًا إذ ينسى أن يشحنه خلال ساعات التيار الكهربائى، ويكون عليه أن يصعد الدرج مثل من يتسلق رأس الجبل محاطًا بغيمة سوداء. لكنه مع الوقت تعود على الأمر.

لم يكن له يد فى الأمر. منذ أن بدأت الكهرباء فى الانقطاع لساعات قد تصل لنصف اليوم حاول أن يؤقلم مواعيد خروجه ورجوعه للبيت مع مواعيد الكهرباء. نجحت الخطة ليومين فقط إذ أن الكهرباء لم يكن لها موعد وصارت تقطع وتأتى فى أوقات لا يمكن نظمها وفق جدول ثابت.

بعد فترة صارت ساقاه تؤلمانه خاصة ركبته اليمنى من الصعود، وكان يصل الطابق التاسع مرهقًا يكاد يسقط على الأرض من التعب. اكتشف طريقة جديدة فى التغلب على الأمر أن يصعد السلم ببطء دون استعجال وأن يستمتع بالصعود. ولكى يتلهى عن كل ذلك اكتشف أن عليه أن يعد درجات السلم درجة درجة ويرتاح بين الطابق والآخر وربما وقف ساندًا جذعه على الدرابزين متذكرًا حادثة وقعت معه خلال اليوم أو شيئًا سيقوم به لاحقًا. وبعد فترة صار يحفظ وقع خطواته على الدرجات وصار يعرف مقدمًا كل شيء سيقوم به، وأزعجه ذلك. فصار يتلعثم فى عد الدرجات وصار يرهقه حفظ عددها. وإذ أخذته النشوة فقد يعود أدراجه لأسفل، ليبدأ مرة أخرى من جديد. وصارت

عملية العد هى ذاتها لعبة يستطيبها، لكنها لعبة متعبة ومرهقة، وعليه أن يتخلى عنها.

وصار عليه أن يفكر فى طريقة جديدة للتغلب على الأمر إلى أن تعود الأمور إلى سابق عهدها ويتوقف عن الصعود الإجبارى إلى الطابق التاسع حيث فقط من النافذة الزجاجية تبدو غزة مريحة وهادئة.

سعادة

ما الذى يمكن أن يخرجه من حاله الكآبة تلك ويدخل نور السعادة إلى قلبه؟ أن يرسل إخوته له رسالة تحمل أخبارهم وأشواقهم وربما بعض الصور الجديدة لهم ولأطفالهم داخل مغلف الرسالة! يبدو ذلك صعبًا إذ ان البريد إلى غزة متوقف، فلا رسائل ولا طرود تصل غزة. كما أن أخبار إخوته صارت تثقل قلبه بالحزن إذ يتذكر السنوات الأربعين التى لم يرهم فيها منذ أن غادروا غزة عقب حرب 1967، ويتذكر كيف مضى العمر ولم يعانقهم فيها أبدًا.

أن يخرج ابنه من السجن بعد أن أمضى عقدين من الزمن يتنقل من سجن لأخر! اتفاقيات السلام وعناقات المفاوضين واحتفالات التوقيع فى البيت الأبيض لم تخرجه له ولم تنجح فى خلق اللحظة الا بدية حين يلف يديه الكهلتين خلف عنق ابنه الوحيد. تعب من تخيل اللحظة للدرجة التى صار فيها يسترجعها وكأنها حدثت فعلاً. ثم أن السلام مات ولم يعد ممكنًا أن تبث الحياة فى جسده المخدر فى ثلاجة الموتى.

أن يسافر هو للقاهرة عبر معبر رفح البرى ومن هناك لعمان حيث أخيه الكبير وبعد أسبوع يركب الباص لدمشق حيث أخوه وأخته فى مخيم اليرموك وربما يتمكن بقية إخوته من التجمع فى الوحدات أو اليرموك من باقى دول الخليج، وتعود العائلة للحظة تجمدت فى قلب الزمن قبل أكثر من أربعين سنة. وقتها كانوا كلهم شبابًا ولم يكن الشيب قد نهض فى رؤوسهم. كيف لهذا أن يتحقق والخروج من غزة صار مستحيلاً ولم يكن بمقدور جسده تحمل عذابات الانتظار والطوابير الطويلة أمام مكاتب الأمن وعلى بوابات المعبر المختلفة.

أن يرزق الله ابنته سلمى بطفل فهى لم تحمل منذ تزوجت قبل عشرة سنين. سلمى هى آخر ما تبقى له من الدنيا. تركتها زوجته وهى لم تبلغ العام بعد. رباها ولم يتزوج رغم ضغوطات العائلة والأصدقاء عليه. أن تحمل سلمى بطفل فهذا خبر بعمره كله. كان ينظر فى عينيها ويرى الحزن الرابض بين جفونها، وكان يحزنه أكثر أنها تحزن لحزنه وخوفه عليها. "الله كريم"، ويضمها بشغف وحب يسريان فى جسدها عندها. لو أن هذا يحدث. لو أن سلمى تطرق الباب الآن وتقول له بأنها حامل. قالت له ذات مرة إنها إذا رزقت بمولود ذكر ستسميه باسمه، وإذا رزقت ببنت ستسميها "يافا". وكان يضحك.

لو أن القدر يضحك أيضًا.

كان يجلس فوق سطح البيت على كرسى القش ينظر للمخيم،

للبيوت المنتشرة بغير نظام كأن أحدًا لا يصدق أن هذه الحالة دائمة ولا بد أن تنتهي يومًا، وكان يلف سيجارته ضاغطًا على التبغ قبل أن يمسح أطراف اللفافة بلسانه، وكان يبتسم وهو يعرف أنه رغم كل شيء فثمة ما قد يدخل السعادة على قلبه حقًا. كان يسعده أنه يفكر في السعادة.
وكان يمج لفافته وهو يتخيل كل تلك اللحظات السعيدة لو أنها حدثت فعلاً، ما أجمل الحياة وقتها.

هجرة

ماذا بقى له فى غزة؟ صارت فكرة الهجرة تطن فى رأسه، تسكنه. لم يعد له من يبقى لأجله بعد أن قتلت يافا. كانت الشيء الوحيد الذى يربطه بالبلد. حين كان يدرس فى أوروبا وخلال خمس سنوات كان يحمل لها الهدايا والتحف التذكارية من كل مكان يزوره. يتخيلها تمشى معه فى كل شارع يسير فيه. كانت يافا الشيء الجميل الذى استمر فى حياته منذ زمن الطفولة، من اللحظة التى لعبا فيها سويةً فى زقاق الحارة وكبرا سوية ونضجا سويةً وتعلقا قلباهما ببعض قبل أن يتكور نهدها. يومها رمته بالكرة فصدمته فى وجهه. سقط على الأرض، لم يند عنه أى صوت إلا صرخته وهو يمسك بيافا التى ركضت نحوه. امسك يدها. هذه المرة كان بريق يلمع فى عينيهما حين التقيتا. أفلتت يدها وهربت، وكان ثمة وخز فى قلبها لم يغادرها بعد ذلك أبدًا.

كبرت أحلامهما معًا ولم تقدر قسوة الحياة فى غزة ولا الانتفاضات المتكررة ولا الموت الذى يسكن الشوارع أن يقتل هذا الحب الذى اتفقا أن يتوجاه بالزواج.

قتلت يافا خلال الاقتتال الداخلي في حزيران 2007. كانت تنفض الغبار عن ستائر النافذة حين جاءتها رصاصة اختلف الفرقاء من منهم أطلقها، وحمّل كل طرف المسئولية للطرف الآخر. لا يهم كثيرًا، المهم أن يافا قتلت، فارقت الحياة أمام عينيه عند بوابة المستشفى، غادرتها الحياة، وظل البريق الصادر من عينيها على حاله من التوهج. أحس لحظتها أن قلبه يغور في بئر لن يرجع منه أبدًا. بكى مثل طفل يبكي طفولته. لم يبكِ هكذا إلا يوم ماتت أمه. بعد يافا لم يبق له أحد في غزة.

قال لنفسه إن أفضل شيء قد يفعله هو الهجرة إلى السويد مثلما يفعل أصدقاؤه. كل غزة تريد أن تهاجر، تحلم بالطيران مثل فراشات تذهب في حقل من الزرقة. قسوة الحياة، ضياع الأمل، انعدام المستقبل، جشع التجار، كذب الساسة، قلة اهتمام العالم وأشياء كثيرة ليس أولها الاحباطات والعثرات الشخصية، كلها دوافع تصلح لأن تجعل فكرة الهجرة مادة مفضلة للحديث في المقاهي وفي زوايا الشوارع وحتى بين طلبة الجامعات.

أما هو فليس بحاجة لتبرير أكثر من أنه لم يعد يطيق أن يرى غزة بلا يافا.

كان يرسم على الورق شكل البيت الذي سيبنيانه، ولن ينسى أن يرسم شجرات الخوخ والمشمس والجوافة خلف البيت والنخلة أمام

المدخل والنافذة الغربية، حيث سيضعان النرجيلة فى المساء وهما يستمعان لصوت البحر. سيكون منظر الشمس مذهلاً وهى تغطس خلف الموجة البعيدة. كان ثمة حلم جميل وصغير بمستقبل أفضل قتل حين استقرت الرصاصة فى صدر يافا وهى تنفض غبار الستائر لكى تصبح النافذة أجمل.

هناك سيبنى حياة جديدة. سيبدأ من الصفر ولن يكون الأمر صعبًا، ليس أصعب من الحياة فى غزة بلا يافا، حيث الموت سلعة مجانية وزائر لا تستطيع رده، وحيث لا يكون لك أحباب ولا أصدقاء، ماذا يظل لك! ربما آهات أبيه فى الليل وهو يتذكر يافا (المدينة) وكيف تركها فى مقتبل العمر على "أفلوكة" غرقت بهم عشرات المرات، وكيف شرب ماء البحر ليروى عطشه الذى لم يرتوِ حتى مات ولم يرجع ليافا، كما ماتت يافا ولم تبنِ معه بيتهما المشترك. ما ذنبه هو!

هناك قد يجد تسلية فى النسيان. خلال الشهر الماضى أنجز كل الأوراق المطلوبة. حصل على فيزا تجارية لبلد مجاور للسويد، ومن هناك سيهبط فى السويد ويطلب اللجوء مثلما فعل العشرات مثله. ستة أشهر فى مخيم اللجوء وبعد ذلك ينطلق للهواء الرحب. وربما لن يحتاج لهذه المعاناة حيث أنه عاش فى أوروبا خمس سنوات قد تشفع له. خلال تلك السنوات الخمسة لم يفكر فى البقاء فى أوروبا لأن ثمة يافا تنتظره. كانت يافا تصر على العيش فى غزة ولم يكن هو يرى سببًا

لتركها. الآن اختلف الأمر.

الليلة وقبل أن ينبلج الفجر ويخرج للمعبر الحدودي يقف في غرفة يافا خلف النافذة التي كانت تقصد أن تنفض عنها الغبار، يغلق النافذة ويسدل الستارة.

سفر

خطر لأم فوزى زيارة أبنتيها فى الأردن، فالعمر يمر وقد يحفر الموت بأظافره على جدران حياتها شارة الرحيل وتموت قبل أن تراهما. مر الآن عشرون عامًا، عشرون خريفًا وعشرون شتاءً وعشرون ربيعًا وعشرون صيفًا.

فى المرة الأخيرة التى جاءتا لزيارتها كان ذلك فى السنة الثانية للانتفاضة الأولى التى انطلقت عام 1987، وكان المخيم كتلة من اللهب والإطارات المشتعلة تملأ الشوارع والجنود يركضون خلف الصبية فى الأزقة، يطلقون الرصاص وقنابل الغاز المسيّل للدموع. لم تكن أم فوزى تدرك أنها المرة الأخيرة التى سترى فيها ابنتيها.

كانتا تأتيان كل صيف لزيارتها، وفى كل مرة تمضيان ثلاثة أسابيع وتغادران وهما تحيطانها بالوعود بأنهما ستعودان فى الصيف القادم.

لم تملك أم فوزى إلا العمل بوصية زوجها قبل موته أن تزوج وحيدتاه لابنى أخيه الذى حملته النكسة إلى الأردن، يسير بتثاقل

فوق الجسر بعد أن ترك يافا عبر البحر إلى غزة. وهكذا ظلت أم فوزى وحيدة فى غزة.

بعد تلك الزيارة تدهورت الأوضاع أكثر فأكثر، وصار من الصعب على ابنتيها زيارتها، حتى اتفاقيات السلام لم تفلح فى تسهيل مهمة اللقاء. ورغم إصرارهما أن تأتى هى لزيارتهما فى الأردن "وفرصة بتشوفى بقية العائلة" إلا أن أم فوزى كانت تفضل الموت "فى فلسطين".

"زيارة وبترجعى لغزة".

"بخاف ما أعرف ارجع، بكفى اللى صار لما طلعنا من يافا".

قصتها الأثيرة عن لحظة خروجها "صدفة" من يافا وهى فى أول الشباب. كان ذلك شباب جاءت خلفه شيخوخة مبكرة.

عمومًا طفح الكيل بأم فوزى وفاض بها الشوق ولم يعد بإمكانها الانتظار. قررت زيارة ابنتيها قبل فوات الأوان. استغرقها الأمر ثلاثة أشهر فى انتظار جواز السفر (هذه هى المرة الأولى التى تحصل فيها على جوزا سفر) وعدم ممانعة تسمح لها بزيارة الأردن. إجراءات بطيئة لكنها سهلة وممكنة فى محصلة الأمر. لم يعد عليها إلا الخروج من غزة لمصر ومن هناك تركب الطائرة لعمان حيث سينتظرها فى المطار كما أخبرتها ابنتاها: أحفادها وأزواج بناتها وأبناء عمومتها وجاراتها اللاتى تركن يافا وغزة. "يعنى مظاهرة" وكانت تتخيل المشهد وتبتسم.

ولم يكن الأمر بهذه السهولة، فالخروج من غزة صار أمرًا فى غاية التعقيد. ظل معبر رفح الحدودى بوابة غزة الوحيدة للعالم الخارجى مغلقًا لأكثر من شهرين متتالين، وكان على أم فوزى أن تترقب أن يُعلن عن فتح المعبر. وذات مساء جاءها جارهم العجوز ليخبرها بأنه سمع بأن المعبر سيفتح يوم غدٍ. فى الصباح استقلت التاكسى. ذهبت للمعبر لم يكن معها إلا حقيبة صغيرة بها بضع ملابس اشترتها لأحفادها وبناتها.

كان الجنود الواقفون يحرسون بوابة المعبر يدفعون الناس بقسوة غير مبررة. بعد خمس ساعات تمكنت أم فوزى من وصول البوابة، قدمت جوازها للجندى، تأمله وقال لها إن عليها أن تسجل فى مقر الوزارة بغزة ليحجز لها دور فى السفر.

لم تنفع كل رجاءاتها ولا توسلاتها ولا سنى عمرها السبعين. ذهبت فى اليوم التالى إلى مقر وزارة الداخلية مقابل السرايا. قال لها الشرطى أن عليها أن تنتظر المرة القادمة التى يفتح فيها المعبر. أيضًا لم يجدِ نقاشها ولا شرحها بأنها حجزت تذكرة سفر على الخطوط الجوية المصرية، وإنها تريد أن ترى بناتها قبل أن تموت.

فى الليل اقترح عليها جارها أن تذهب لإمام المسجد للتوسط لها لدى الضابط الكبير فهو صديقه وكان فيما مضى يصلى خلفه، "لعل

المحاولة تنجح". بعد ثلاثة أيام مر بها إمام المسجد مبشرًا بأن الضابط وعد بأن يساعدها فى الفتحة القادمة للمعبر.

"متى الفتحة القادمة؟"

"يعنى نحن والتساهيل بعد شهرين".

خلال الشهرين كانت أم فوزى تمضى يومها إما أمام باب وزارة الداخلية مستفسرة، وإما عند مخفر الشرطة فى المخيم راجية أن تجد لها من يساعدها، وإما تنتظر إمام المسجد حين يعود إلى بيته فى الحارة عقب كل صلاة. مر الشهران بالطول والعرض بعد أن أكلها الصبر وزادها أرقًا وتعبًا وصارت تحس بأظافر الموت فى جسدها.

كان لا يفوتها خلال ذلك أن تستمع أربعة وعشرين ساعة لنشرات الأخبار لعلها تلتقط شيئًا عن "فتح المعبر".

فى صباح اليوم التالى طرق جارها العجوز باب بيتها ليبلغها بأن المعبر فتح. لم يجد طرقه نفعًا إذ مضت أيام ثلاثة لم يظهر فيها لأم فوزى أثر فى الحارة حتى وجدها الجيران ممدة على فراشها وقد حفر الموت بأظافره فى جسدها

الكاتب

عاطف أبو سيف (1973) يعيش في غزة صدر له

ظلال في الذاكرة، رواية، 1997

حكاية ليلة سامر، رواية 2000

كرة الثلج، رواية، 2001

حصرم الجنة، رواية 2003، 2006

الأشياء عادة جدًا، مجموعة قصصية، 2004

المحتوى

صدر مؤخراً فى سلسلة

آفاق عربية

144- كاعمى تقودنى قصبة النأى............... محمد حلمى الريشة

145- دفتر سيجارة.............................. بول شاوول

146- حشد ثلاثة حروف وصالة.................. عيد الخميسى

147- يحدث أمس.......................... إسماعيل فهد إسماعيل

148- من بحر العرب إلى بحر الصين .... سيف الرحبى

149- من ليل يستريح على خشب النافذة .... حسن نجمى

150- رغوة القلب الفائضة .... ميسون صقر

151- البحــريــات .... أميمة الخميس

152- إنكسرت وحيداً.......................... محمد حبيبى

153- لا تجـرح الـماء .... أحمد قرآن الزهرانى

154- مهـر الصيــاح .... أمير تاج السر

155- جمـر كانــون .... أبو بكر العيادى

156- عطش الحمائم .... إبراهيم سليمان نادر

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496

سلسلة آفاق عربية

كانت دكانته الصغيرة آخر شيء بقى في الشارع من زمن الطفولة. كل شيء تغير. البقالة ذات الرفوف الخشبية صارت سوبر ماركتًا لا يخلو من أناقة وحداثة. الرجل، الذي يبيع السجائر في صندوق من الكارتون صار له كشكًا خشبيًا يتسع لعشرات الماركات العالمية.





السعر: ثلاثة جنيهات